

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

الناشر : مكتبة مديبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ٩٥ / ٩٣٤٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المدير الفني : محمد الصباغ

خطوط الغلاف : نعي فهيم

المراجعة اللغوية : سيد عبد المعطر

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

سيد محمود القمني

الناشر: مديولى الصغير

إهداء

إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى فى محنتى الصحىة:

الأستاذ فاروق حسنى والدكتور جابر عصفور والدكتور فوزى فهمى، والأستاذة فوزية رشيد، والأستاذة عبدالعال الباقورى وصحيفة الأهالى، وجمال الغيطانى، ومصطفى بكرى، وسليمان فياض، وفتحى عامر، وعبد الغنى داود، وعبدالله الشرهان، والأصدقاء الذين أحاطونى بالحب والرعاية، كوكبة أطباء الزقازيق: الدكتور أيمن عبدالحارس والدكتور نصر السيد والدكتور أحمد والى، فكانوا إلى جوارى طوال الوقت، ومنحونى من الحب ما هو جدير بهم.

والى (عمال) جناح القلب بمستشفى الهرم، والى كل من شارك دون أن يعلمنى بدوره، وكل من كتب فى الصحف، أو وقع على بيان، أو شارك بالتمنى الطيب عن بعد.

لهم جميعا كل الحب وكل العرفان.

مسار التاريخ

«أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»

[١٣] الشورى / قرآن كريم]

في الجزء الأول من هذا العمل، قدمنا تأسيساً تمهيدياً يساعد على تفهم المراحل التي اجتازتها دولة العرب وهي في طور النشأة، والتي أقام نواتها الأولى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - في عاصمته (يثرب)، عبر حروب طويلة خاضها بصحبة رجاله، من أجل تأمين دولته الوليدة، وتوحيد قبائل العربان تحت راية دولة واحدة، وقائد واحد، وعبادة واحدة.

وإعمالاً لذلك؛ قمنا بقراءة واقع جزيرة العرب، الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، في الفترة الواقعة قبل الدعوة، فكان حديثنا عن حكومة الملأ الابتدائية في مكة، التي كانت شبه جمهورية، والتي قامت بهدف إحكام سيطرة الأرستقراطية التجارية المكية، على مختلف الشئون، في خطوات بدأت بتقريش قبائل مكة زمن (قصي بن كلاب)، أي جمعهم بعد تفرق، ثم كانت الخطوة الثانية: الإيلاف، للتأليف بين قبائل مكة التجارية، وبين القبائل الضاربة على الخط التجاري الواصل بين مكة وبين الامبراطوريتين: الفارسية والرومانية، وبينها وبين القبائل المتناثرة في باطن الجزيرة في خطوط فرعية، ثم بين مكة وبين الامبراطوريتين.

وقد هيا مكة للقيام بهذا الدور التاريخي، مجموعة متسارعة من الأحداث، حيث كان مركز اليمن الزراعي قد تهاوى وكذلك التجاري، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية:

الغساسنة والمناذرة، وذلك في العصر الجاهلي الأخير، وهو ما أحدث فراغا سياسيا واضحا، كما انهارت مجموعة طرق تجارية أخرى لم يبق آمنا منها سوى الطريق المار بمكة، نتيجة للحرب الضروس التي دارت بين الفرس والروم.

وكان لمنعة الطريق المار بمكة، دور حول مكة من قابضة للعشور على بضاعة الترانزيت المارة بها، إلى مركز للأرستقراطية التجارية التي نهضت بأمر تجارة العالم المعروف آنذاك، وهو الأمر الذي أدى إلى تراكم ثروى عظيم، بخزائن الأرستقراطية المكية، التي أخذت تتاجر لحسابها بثروات العالم.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان محتماً أن تبدأ الانقسامات الطبقيّة الحادة فى الظهور داخل القبيلة الواحدة، مما أدى إلى تهشيم الأسس الأولية القديمة لروابط العشيرة، وما صاحبه من اختلاف أوضاع الناس فى العملية التجارية التى تقودها مكة، مما ساعد على تحول تدريجى ابتدائى عن الولاء للقبيلة إلى الولاء للطبقة، وظهرت قيم الفردية، التى اتضحت فى إمكان تحديد قيمة الفرد دون جماعة، بتحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر، إلى ما يملكه الفرد من مال، وهكذا جمعت المصالح المادية لأول مرة، بين أفراد من قبائل مختلفة، كما جمع الشقاء بين المسنضعفين على تفرقهم بين مخلف القبائل.

وقد لاحظنا بما قدمناه من أمثلة، أن كل تلك التطورات لم تصل فوراً إلى نتيجتها الواضحة، فلم يتم تفجير القيم القديمة تفجيراً كاملاً، إنما تخفى المحتوى الطبقي الجديد برداء قبلى قديم، عندما سعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتها بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح، وإشراك صغار التجار فى قوافلهم التجارية، وهو ما تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين قبليين كبيرين بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين لكن بلامح قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر.

وكان مفترضا أن يودى التفاوت الطبقي، وتناقضه مع الشكل القبلى، إلى مرحلة تفجر الشكل لمصالح المحتوى، لولا أن الشكل القبلى كان يودى للقيادة المكية - ولمصالح الأرستقراطية التجارية تحديداً - مكسبا ثرويا أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقي، لأن بقاء القبيلة وإطالة أمدتها كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره مستوى المرحلة الفكرية.

وعلى المستوى الفكرى، كان الرب القبلى سيد القبيلة وسلفها البعيد، ومعبودها ورمز عزنها وكبرياتها، وكان تجمع تلك الأرياب فى ضيافة الكعبة المكية يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرياب، ومزيداً من المكاسب، وبينما كان المحتوى الطبقي يسير نحو تفجير الشكل القبلى

لصالح توحد القبائل جميعاً، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكناً رفض القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عن الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكان الأرستقراطيون ينحون نحو التوحد المصلحي الذي احتاج أدلجة أفرزت اعتقاداً في إله واحد يرعى تلك المصالح، ويكون في مرتبة تليق بمكانتهم السيادية والإدارية، فوق آلهة الكعبة جميعاً، وراعياً غائباً لمصالحهم، كذلك كان المضطهدون والمعدمون والرقيق، في حالة رفض نفسي وعقلي لأرباب باتت لا تعدل في فسمه الأرزاق.

ومن ثم ظل التشردم القبلي قائماً، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة في حالة إرهاب ومخاض، دون ميلاد حقيقي، بينما انشأ اعتقاد في مهمة باقية للأرباب القبلية، وهي النشف لأصحابها لدى الإله الواحد الأعلى، فاتخذوها إليه زلفى، وهو ما كان إخضاعاً نفسياً داخلياً وذاتياً للقبائل، لملأ مكة وسيادتهم، باعتراف القبائل العربية بسيادة إله الملأ الأعلى على أرباب القبائل.

وبينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمي، لصالح توحد كامل، يقضى على التمثيل القبلي، لصالح نظام حكم مركزي جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحساباتها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل نتجاوزها بضرب التعدد السلطوي والربوبي لصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعاً لكل عربان الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين القبلية والنوحد نحو أمة واحدة، بدأت تسرى في الآفاق نبوءات الحكماء والكهان عن قدوم موحد فرد ينفق في مواصفاته مع حالة الجزيرة الاجتماعية، فهو لن يأتي ملكاً، لأن أي قبيلة سدرفض فوراً أن يحكمها ملك من خارج نسبها، لذلك سبأتى الملك بصيغة أخرى، صيغة جامعة مانعة يقبلها الجميع، ومن ثم سرى الإرهاب الأحماسي القومية، بمقدم نبي منتظر^(١).

وكان تراكم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية بحاجة إلى وسائل تنموية متعددة، بينما الواقع المتشظى بضالة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات في حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقي يعود بفوائده على المستوى القاعدى الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها في شكل معادن ثمينة، وهو ما أدى دوراً معطلا لدورها الإنتاجية المفترضة، كما أدى بالتجار الوسطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى

(١) ارجع في تفاصيل ذلك إلى موضوعنا: دور الحرب الهاشمي والعقيدة الحنيفة في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع/أكتوبر ١٩٨٦، ص ٦: ٢٧، والموضوع نفسه موسعاً في كتاب بعنوان: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سيناء، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠، انظر أيضاً التأسيس الذي مهدنا به للجزء الأول من كتابنا: حروب دولة الرسول، دار سيناء، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣.

قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملاء على حالهم المحافظ الرجعي بالاكتمال حتى موسم التجارة .

ومثل تلك المقدمات تفسر لنا إسلام بعض التجار الواسطيين مثل أبى بكر بن أبى قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادى المستضعفين، حيث كان هؤلاء الواسطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعى، تلك القراءة التى أدركت غاية خط سير التطور. حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكى لأهله من الجوع والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعاً، بتوحد ينتهى إلى قوة واقتدار، ويؤدى إلى نظرة طموح نحو الامبراطوريتين المتهاكتين .

كذلك تفسر تلك المقدمات، تلك اللغة القومية الجديدة التى أخذت تسرى مع سفى الرياح فى فيافى الجزيرة، وأوردنا لها نماذج فى الجزء الأول من هذا العمل، ونعضده هنا بإضافة ما وجدناه مجدداً عند (الدينورى) فى الأخبار الطوال وهو يحكى عن (النعمان بن المنذر)، ملك الحيرة العربى المسيحى، المنوب عليها من قبل كسرى فارس، ذلك الرجل الذى ظهر شعوره القومى العربى تجاه قومه، فقام يساعد (سيف بن ذى يزن) العربى اليهودى الذى ثار فى اليمن على الاحتلال الحبشى المسيحى لبلاده، فتوسط النعمان لدى كسرى ليمد سيف بن ذى يزن بالسلاح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط فى تبعية الفرس .

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يوطىء لجيوش الفرس فى اليمن لظلمناه ظلماً بيناً، لأن ذلك التفسير سيجافى ما حدث بعد ذلك وينافيه تماماً، فقد استمرت سياسة النعمان فى موالة القبائل العربية، حتى توجس منه كسرى الذى وعى بدوره شكل التحولات التى تجرى فى الجزيرة ونذرهما، فتخلص منه، وأوجز سبب قتله فى خلاصة واضحة معبرة تماماً عن خط سير الأحداث، حيث قال:

وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر، وإزالتي الملك عن آل عمرو
ابن عدى، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطأوا العرب
وأعلموهم توكلهم خروج الملك عنا إليهم، وكان لهم فى ذلك كتب،
فقتلته، ووليت الأمر أعرابياً لا يعقل من ذلك شيئاً^(٢).

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تغيير على سواد العراق كراً وقرأ^(٣)، ثم تصاعدت

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٦٣، ١٠٩، ١١٠ .

(٣) الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، ط ٢، الدجف، ح ٢٠، ص ١٣٢

المناوشات بين قبائل إياد والفرس، ليهزم العرب هزائم متتالية^(٤)، حتى تأتي موقعة ذى قار حيث تحقق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية، ذلك النصر الذي دوى أمره يرجع صدهاء بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره. مع فرح عام شمل الجزيرة جميعاً، عبر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومي واضح لأشياء فيه، ليلقى بصدهاء فى سمع الأجيال وهى تنصت إلى موحد العرب، النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يعقب على نصر ذى قار قائلاً: «اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصرُوا»^(٥).

وفى مكة، كان أبرز من وعى إمكانات المستقبل وهى تلقى بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملائكة، هو عتبة بن ربيعة، الذى وقف يطلب من قريش الكف عن محمد، لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيحققه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم، لكن إصرار الملائكة على المنافع الضيقة واستدامة الأرياب القبلية جذبا للتجارة، أدى بذلك المتغير الآتى إلى أن يفرض وجوده فرضاً، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة التاجرة، ذلك الفرد المنتظر، نبى الإسلام الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذى نشأ يتيماً فقيراً كادحاً، من البيت الهاشمى الذى حاز شرف النسب، لكن مع تواضع مادية، بل كان من الغصن رقيق الحال فى ذلك البيت، غصن عبدالمطلب وأبى طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحول محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فخير الأمرين، وعاش الحالين، وعاین الطبقتين، مما كان كفيلاً بوعى نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

وإعمالاً لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخى، بدأ النبى - صلى الله عليه وسلم - دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملا مكة، ابتداءً بضرب التعدد القبلى الربوبى، بهدف التوحيد الآتى، ومن ثم كان إعلانه كفران قريش «قل ياأيها الكافرون...»، وسلبها لقبها الذى شرفتها به العرب (أهل الله)، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، مع رفضه الصارم لفواعد التجارة التى قعدوها، التى كانت تعطل سيولة رأس المال وتجمد دورته التنموية، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة، بأوامر وحى يساير سنن الكون التاريخية ويلتقى معها، حتى وصل فى مغالاته إلى ذم المال فى ذاته، وهو ما جاء فى، رواية ابن حنبل:

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج ١، ص ١٢٩.

(٥) حليفة بن حياط: الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العالى، ط ١، بعباد، ١٩٦٧، ص ٤٣.

«إن النبي قال: تبا للذهب، تبا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: أى مال نتخذ؟ فقال عمر - رضى الله عنه -: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أى مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه،^(٦).

وتكرر موقفه من المال فى مواقف من أصحابه من التجار الوسطيين، فقال يوماً لعبد الرحمن ابن عوف - رضى الله عنه - : «ما بطأ بك يا عبد الرحمن؟ قال: ماذا يا رسول الله، قال - صلى الله عليه وسلم - إنك آخر أصحابي لحوقاً بى يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عنى، فيقول المال: كنت محاسباً محبوساً حتى الآن،^(٧).

وكان طبيعياً أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة، أدى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشى، إنها كنوز كسرى وقيصر بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحي: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» (٥/القصص).

ويروى البلاذرى: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا جلس فى المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد من الله عليهم من بيننا،^(٨).

وإعمالاً لذلك بات واضحاً أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يوحد ولا يفرق، يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (١٣ الشورى)، ومن هنا، وفى تلك المرحلة، قام الإسلام يضرب القبليّة، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر، وهو ما دعا إليه

(٦) ابن حنبل: كتاب الرهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٩.

(٧) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلمحيص محمد بن سماحه، تحقيق محمود عربوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٩.

(٨) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ٢١، ص ١٥٦.

الوحي في قوله: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» (١١٣ / التوبة).

وقد أفصحت الصحيفة التي عقدت بعد ذلك بزمن بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقيام الدولة على نظام اجتماعي جديد، يميزها كأمة أخرى تماما دون بقية الأعراب، ووضعت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضري الكيفي المتجاوز للتجمع القبلي الكمي، وهو المبدأ الوارد في نصها المضيء في مبتدأها: «هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»^(٩).

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة، بادئة بالمهمة الكبرى، وهي إسقاط نظام الملأ المكي، وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام في أساسه الخرساني، بقطع طريق الإيلاف التجاري المار قرب يثرب، بحروب بدأت رحاها بسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقيام دولة الرسول في يثرب.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ضمن كتاب السهيلي: الروص الأنف في تفسير السيرة النبوية لاس هشام، ضبط طه عبدالرؤف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مح ٢، ص ٢٤١.

التأسيس التاريخى للأمة

«إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما
هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»

[النبي محمدا]

كان الانقلاب العظيم الذى جاءت به الدعوة، يتمثل فى رفض النموذج البدوى للإنسان العربى فى المرحلة القبل إسلامية، ومن ثم جاء الانقلاب ليسارع فى تفجير الأطر القبلية، ويبنى نموذجا جديداً لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التى كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحي المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين» (١٢٠ / النحل)، فإنها جعلت من محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الأنبياء وخاتمهم، ومن ثم كان محمد بدوره أمة، وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء فى دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين، أى سيكونون بدورهم أمة، لذلك جاءت الآيات تقول:

- «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» (١٠٤ / آل عمران).
- «كنتم خير أمة أخرجت للناس» (١١٠ / آل عمران).
- «إن هذه أمتكم أمة واحدة» (٩٢ / الأنبياء).

وكان الشرط ليكونوا أمة، هو الاعتراف بمحمد رسولا خانما، وبمن سلف من أنبيائهم أنبياء وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد ربا جامعا لوحدتهم في كيان اجتماعي عقدي واحد.

ومن البداية كان واضحا أن هذه الأمة الجديدة هي الأمة الجامعة لعرب، بدأوا منذ وهلة فقط قريبة جدا يشعرون بوحدة جنسهم وبقوميتهم، إزاء تفجر أطر القبيلة، وهو ما تمثل في موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس في ذي قار.

ومن هنا أضحي واضحا أن مصطلح أمة في العقيدة الجديدة يعنى كياناً اجتماعياً جديداً، شديد الصلة بمعنى يناقض البداوة والقبلية، ويتماهى مع معنى المدنية والحضارة.

ومنعا لأي التباس في عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالي الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هي لسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»^(١٠).

كان التوحيد الربوي ناتجا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضا كان مؤسسا للدولة الواحدة، وكان لا بد أن يرافقه توحيد اثنى جنسى يلغى أسلاف القبائل الذين هم أرباب في الوقت ذاته، لتتحقق الوحدة المرجوة، ومن ثم كان تأكيد النبي على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوي يتمثل في الالتفاف حول لاء واحدة هي قول لا إله إلا الله، والقبول بالانصواء تحت سلطة نبوية قائدة واحدة تتمثل في الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمي للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العريان من الوضع القبلي إلى الوضع القومي.

ولتحقيق الهدف؛ كان لا بد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعنى انسلاخه الكامل فكريا وسلوكيا عن حالة التبدي والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمستعصية، حيث لم تشعر شرائح العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائي كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن

(١٠) بعلأ عن اس تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص ١٦٦، ١٦٩.

ماضيها وأحوال من سبقهم، وهو انقطاع تاريخي مع التاريخ لعوامل كثيرة معلومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى أنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة، ورغم أن البعض اليوم يقعد تلك الحضارات في مجلس التاريخ العربي، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمنى، فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوي وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطي الذي تطور عنه الخط العربي بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، ولم يبدأ ذلك الشعور جلياً إلا مع دخول الرسمة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقي، حيث بدت بوادره بفرح عم جزيرة العرب عندما انصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس في وقعة ذي قار، وعندما تمكن ابن ذى يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لابد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطئ قدم راسخ في عمق الزمان الماضي، فأى أمة لابد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره في الماضي البعيد المؤسس للتطور التالي المنشئ للأمم أصلاً:

ومن هنا كان الاتجاه نحو العماد التأسيسي العفدي لإلقائه في رحم التاريخ القديم، بربط النبي محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة في الفصص الديني، ليصبح تاريخ الأمة الجديدة تاريخاً نبوياً، ومعرفياً سماوياً، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديداً باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوي القبل خلقى، فتصبح لغة الملائكة السماوي، ولغة آدم أبو البشر جميعاً في الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة من بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء في سياق تاريخي كان هدفه النهائي هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء خطوات تمهيدية نظورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبي وأمة المسلمين، ويصبح جميع الأنبياء في بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بني إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود في الشام واليمن، أو في العراق كما في حالة إبراهيم، أو في مصر كما في حالة موسى، يصبح كل هؤلاء بموروثهم النبوي، وجدلهم المعرفي والحضاري مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخي للأمة العربية الطالعة، وهو الأمر الذي سيلتقي تماماً مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثاً تاريخياً، تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هي ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء في جميع الأمم.

ومن هنا نتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك (التاريخية) للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء، لتكون بمنابة إعادة اكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضي الأمة.

ولأن الغرض (توحد) في أمة (مُوحدة) في عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالف موحدين، ومن ثم كان الهجوم التكفيرى على بعض الآراء والعقائد في الديانات السابقة والتي دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما في بعض حالات أنبياء اليهودية وفي حالة يسوع المسيح. لتصبح القيم التي مثلوها هي القيم التي تتساقق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبي التوحيدية الموحدة لتوحيد قبائل العرب في دولة مركزية واحدة.

ومن ثم تتالت الآيات القرآنية تؤكد «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء» (١٥٩ / الأنعام)، وهي الآيات التي تعنى أن تلك القبائل إنما كانت في الأصل على الدين النبوى التوحيدي الذى أسسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعا، مما يعنى أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل، ومن ثم ينقلب منطق التطور على عقبيه لصالح التأسيس التاريخى للأمة، ومن ثم كان نداء الآيات «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا» (١٣ / الشورى)،

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية في يثرب كان لابد من مركز تأسيسى يمثل المركز الحكومى الإدارى، وفي ذات الوقت يجب أن يكون مركزا مقدسا، ومن هنا أمر الرسول الأتباع عند دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلا: «اتركوها فإنها مأمورة»، لتبرك الناقة فيتقدس الموضع الذى بركت فيه ويبنى فيه المسجد الذى تقدر فى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا»، بل وحرم يثرب جميعا لتعادل بحرمتها مدينة مكة.

وفى المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يوجههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تأكد المعنى المدنى للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية فى آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها:

«الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»

(٩٧ / التوبة).

«ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر»

(٩٨ / التوبة).

«وممن حولكم من الأعراب منافقون» (١٠١ / التوبة).

«قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان

فى قلوبكم» (١٤ / الحجرات).

ومن ثم أصبح التمدن مرادفا للإيمان، حيث المدينة تؤكد الشعور بالانتماء والانتساب والمواطنة وبالهيبة الحضارية، لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائياً، لظرفها الاقتصادي والمجتمعي، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمة ما فيها، فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى، للحصول على المقومات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

«لم تحل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا» (١١).

ومن ثم تقدست أيضاً تلك الغارات، وشرعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالاً ومقدساً. أما قريش ومشركوها فقد كانوا يشكلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء اليثربية عليهم، مع الظفر الذي تحقق ليثرب، مدعاة لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار في طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكى عن حروب النبي - صلى الله عليه وسلم - لقريش وحصارها اقتصادياً، فقال: «كنا قوماً تجاراً وكنا...» الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهتكت أموالنا» (١٢).

(١١) الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت، ص ٢٤٩.

(١٢) المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج ٦، ص ٩٤.